

التنائيات الضدية في قصيدة ابن زريق الفراقية

أ.م.د. نهى حسين كندوح

قسم اللغة العربية

كلية التربية - جامعة القادسية

العراق

الخلاصة

تعد قصيدة ابن زريق البغدادي (ت 420 هـ) من أروع القصائد العربية؛ التي حملت في طياتها ألماً وشكوى وضياح الهدف، بعد ان تعددت المساعي؛ وقد لقيت هذه القصيدة بـ (الفراقية) لقرب المحتوى من دلالة الوصف؛ محققة بذلك الأثر الوجداني في نفس المتلقي، فقد تجاذبت النص أصوات متضاربة؛ نتيجة للصراع مع النفس من جهة، والزوجة من جهة أخرى، وكانت الزوجة - كما أعلن النص بذلك - الصوت الواعي الهادئ القنوع، يقابله الصوت المتهور والنزعة غير المستقرة عند ابن زريق - الزوج - وهذا التباعد الفكري جسّد شعرياً عبر تنائيات ضدية: من تضاد وتناقض، أو ما يقابله بلاغياً بطباق السلب وطباق الإيجاب. إن اعتماد أسلوب التواتر المتأني من انتقال الضد إلى الضد بما فيه من اختزال التجربة الذاتية ومعاناتها في مسيرة الرحيل والغربة، فيه ما فيه من جمال لغوي وحسن تعبير وبراعة في تأدية المعنى.

Contradictory Diodes in Ibn Zureiq's Poem in Separation

ABSTRACT

The poem Ibn Zureiq Al-Baghdadi (T 420H) is one of the finest Arabic poems, which carried with it the pain and complaint and loss of the goal, after many attempts; this poem was called (Farqqip) to close the content of the description; thus achieving the emotional impact in the same recipient, The text drew conflicting voices; as a result of the conflict with the soul on the one hand, and the wife on the other, and the wife - as declared by the text - the quiet conscious voice of jealousy, offset by the reckless sound and unstable tendency of Ibn Zureik the husband _ and this intellectual divergence Antibodies: from antagonism and contradiction, or correspondingly correspond to the looting offer remains. The adoption of the method of careful frequency of the movement of the antibody to the antibody, including the reduction of self-experience and suffering in the process of departure and alienation, It has a linguistic beauty and good expression and craftsmanship in the performance of the meaning.

توطئة

قصيدة ابن زريق البغدادي (420 هـ) (*)

إنَّ الشكوى في جانب كبير منها تعبير ذاتي عن هموم متولدة من مشكلات الحياة في عمومها وخصوصها، وقد لا تفهم أسباب الشكوى لذاتيتها. وقد يلام صاحب الشكوى ومن هنا تبدأ التبريرات. فتظهر المتناقضات في الأفعال، وقد عانى أبو الحسن علي بن زريق البغدادي (420 هـ) من الضنك وسوء الحال؛ رافضاً سبل العيش في بغداد متأملاً أفضلها في السفر والترحال.

فقد ذكرت المصادر أنه ترك بغداد قاصداً وراجياً الاندلس وأميرها أبا عبد الرحمن الأندلسي، يرجو العطاء، وقد مدحه بقصيدة بليغة، فأعطاه عطاء نزرأ، وشق عليه ذلك، وحرَّ في نفسه، وقال والحزن يحرقه: ((إنا لله وإنا إليه راجعون، وسلكت البراري والبحار والمهامه والقفار إلى هذا الرجل فأعطاني هذا العطاء النزر)) (1) فانكسرت نفسه واعتلى ومات.

وقبل موته قال عينيته المشهورة في وصف حاله وشكوى أيا به ونزوح داره. والسعي وراء الرزق من أهم الدوافع للارتحال والانتقال من مكان الى آخر ((ان بدا مجهولاً للمرتجل وبطبيعة الحال فإن الإنسان بطبعه ميالاً الى للاستقرار النفسي والروحي وتنشأ الرغبة بالرحلة عند ما يغلب على الذات حكم المغايرة، ويبدأ الصراع مع الواقع الذي قد يساعد في تحقيق هذه المغايرة)) (2). — ((السفر وسيلة الى الخلاص من مهروب عنه، أو الوصول إلى مطلوب مرغوب فيه)) (3).

ويبدو ان سوء الطالع كان رفيقه في رحلته لا ينفك ان يفارقه، فقال قصيدته مجسداً آلامه وصراعاته وتقلباته الفكرية، متذكراً ما كان عليه وما آل اليه، معتمداً أسلوب التضاد والتناقض.

فقد صور ابن زريق في ثنائياته انعكاسات التجربة وانعطاف المسيرة في تناسق لغوي بعيداً عن التكلف.

الثنائيات الضدية في قصيدة (لا تعذليه)

المبحث الاول: الثنائيات الضدية ودلالة (الإقدام – الإحجام)

مرَّ ابن زريق البغدادي بحالات انفعالية، حاول طرحها وتصويرها عن طريق التضاد؛ لما يمتلكه هذا الفن البلاغي من أسلوبية التوسط بين الضدين، وما له من دور في إحياء البناء الفكري والدلالي لمسرى القصيدة الفراقية.

فالضدَّ ((كل شيء ضاد شيئاً يغلبه، والسواد ضد البياض، والموت ضد الحياة، تقول هذا ضد وضديده، والليل ضد النهار، إذا جاء هذا وذهب ذلك)) (4). فالتضاد هو ((الخلاف)) وهو من الثنائيات الفلسفية التي تقوم على أساس زوجية المبادئ المفسرة للكون (5).

أما اصطلاحاً فالتضاد هو ((الجمع بين مصطلحين يكون بين معنهما نوعٌ من التلاقي والخلاف، بحيث لا يمكن الجمع من دلاليتهما في وقت واحد، وغالباً ما يكون بين المتضادين شيء وسط)) (6).

وتأتي أهمية التضاد؛ لكونه أحد الوسائل الأدبية والبلاغية التي يلجأ إليها الشاعر لمضاعفة الطاقة الأسلوبية، لا عن طريق الكثرة في عدد المتضادات وإنما في ترتيبها وتشكيلها بل في قمة الإشارة التي تنتجها وتحببها داخل البناء العام للنص (7).

وإذا ما أريد تعريف التضاد بلاغياً، فكثير من الباحثين يدرجونه ضمن الطباق، وهذا من الوجهة الأدبية صحيح، لكن دلالة التضاد تؤكد انطباقه على طباق الإيجاب. فالطباق يقسم على قسمين: طباق إيجاب وطباق سلب، والأخير – طباق السلب – يمثل التناقض، وسنأتي لتبنيانه لاحقاً، أما الأول – طباق الإيجاب – فهو ما يدل على التضاد.

ويعرف البلاغيون الطباق بأنه ((الجمع بين الشيء وضده))(8).

كما يوسم الطباق بنغم موسيقى يضفي على النص رونقاً وعضوبة تطرب لها الأذن المتلقية، ولا يقتصر التضاد على هذه الحلية البديعية، بل يتعداه إلى مغزى دقيق عمد إليه الشاعر في جمعه بين المتضادين.

لقد شعر ابن زريق البغدادي بضنك العيش وضافت عليه الأرض بما رحبت، فتولدت لديه الرغبة بالارتحال إلى مكان قد يجني منه ما لم يستحصل عليه في بغداد، ويبدو ان نفس ابن زريق كانت تمل الصبر، وتسعى إلى الغنى السريع، ومن هنا بدأت المعاناة، والدخول في صراع الـ (إقدام – إحجام)، فبعد ان قوبل قرار ابن زريق بالمعارضة من قبل الزوجة، انبرى لها لانثماً رداً على لوم ما حدث في زمن مضى من قبلها، يقول:

جاوَزتِ في لومه حدّاً أضَرَ به من حيثٍ قدّرتِ أنْ النصحَ يَنْفَعُهُ
فاسْتَعْملي الرفقَ في تَأْييبِهِ بدلاً من عَذْلِهِ فهوَ مُضنى القلبِ مُوجَعُهُ

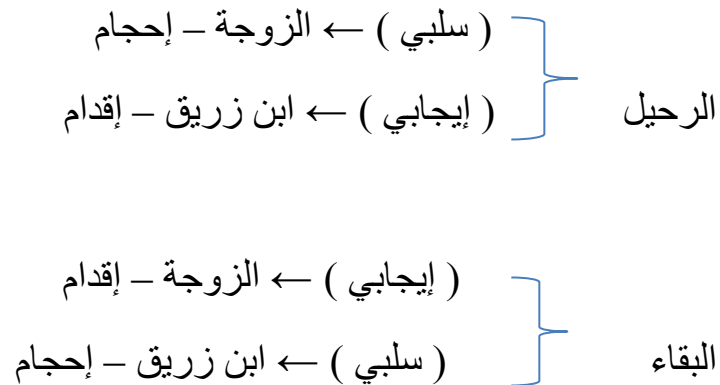
يستهل ابن زريق قصيدته بتوجيه الخطاب إلى زوجته اللانثمة والمعنفة معلنة رفضها لقرار السفر والترحال، وان كان لغاية مقنعة. وقد نقل الشاعر الموقف بصور شعرية تلونه بطريقة تجسده فعلياً في مخيلة المتلقي، وقد جسد هذا الموقف بالثنائيات المثبتة المتضادة، لتحريك وشد الذهن؛ ليجعل الصورة أكثر رسوخاً ووضوحاً، ومن هذه الضديات المثبتة في النص:

الضر – النفع
الرفق – العنف ← من دلالات اللوم

فألزوجة تفترض النفع في حال التعنيف، وهو – ابن زريق – يأمل أن ترقق الكلام له، بسبب الأزمة النفسية التي خلفها فشل السعي، فلا يطبق بعد ذلك اللوم. ويبدو أن صراع الأقدام كان هو المتغلب على الإحجام، إذ يقف الشاعر موقف المتحدي في رحلته نحو المجهول، فهو يدعو زوجته أن تتلطف ولا تدخل مدخل المهاجم، وهذا هو معنى التضاد في احتمال التوسط بين الحالتين.

يفترض ابن زريق حالاً بين حالين هو واقع بينهما، فلا يريد القسوة في الطرح، لأنه مسبب لحدوث الصراع والحاق الضرر النفسي؛ فقد يصادف المرء في حياته وهو في سبيل تحقيق نواياه وإشباع رغباته سبيلاً عسيرة فيختار منها ما يراه مناسباً متجنباً سوء الاحوال، ولا شك أن عملية الاختيار كما ألمح إليه في الاستعمال الشعري للثنائيات الضدية؛ تدعوه إلى الحيرة، وهذا ما يسمى بصراع (الإقدام – الإحجام) ((إذ يواجه الفرد هدفاً له وجهان: أحدهما إيجابي مرغوب فيه والآخر سلبي غير مرغوب فيه، فإذا فعل ما يحقق الجانب المرغوب فيه يواجه الجانب غير المرغوب))(9).

لقد جعل التضاد من النص مسرحاً للتعبير عن صواب الرأي - أعني رأي الطرفين معاً - فكلاهما يعتقد برجاحة أفكاره وصواب ما يقصده، كما يتمثل بالتخطيط الآتي:



وفي ذروة هذا الصراع بين (البقاء - الرحيل) او (الإحجام - الإقدام) واستقرار الرأي على الرحيل لاحقاً، تطالعنا ثنائيات أخرى لها دلالات نفسية تشير إلى أنه الطامحة في تحقيق المعالي، يقول:

ما أب من سفرٍ إلّا وأزَعَجَهُ رأيٌ إلى سفرٍ بالرغمِ يتبعُهُ
كأنّما هوَ في حلٍّ ومرتلٍ مؤكِّلٌ بقضاءِ اللهِ يدِرَعُهُ

لا تخلو الحياة من الصعوبات والعواقب سواء أكان المادي منها أو المعنوي التي تعوق المسيرة وتحرف الطريق عن مساره والدوافع عن أهدافها، والطريق الطبيعي لإزالة هذه العقبات أو التغلب عليها، هو أن يضاعف المجتهد أو الساعي جهوده وأن يكرر محاولاته لتذليل صعابها، فإن لم يفلح فإن الخطوة التالية، وبطبيعة الحال، المعاودة والتفكير والبحث عن طريق أخرى لهذه المشكلة، وقد يقع على الحل بعد جهد جهيد وعناء طويل، أو قد يطول التفكير والمحاولات دون جدوى فيمتنع عليه الحل مهما بذل من جهد وفكر(10).

وتشير ثنائية التضاد في (من سفر - الى سفر) و (حل - مرتحل) إلى تكرار المحاولات ورغبته الجامحة وتعلق الآمال بالرحيل؛ إذ لا ينفع استقرار حينها.

أما دلالة الثنائيات الضدية في قوله:

وَمَا مُجَاهِدَةُ الْإِنْسَانِ وَاصِلَةٌ رِزْقًا وَوَادِعَةَ الْإِنْسَانِ تَقْطَعُهُ

فقد طابق بين:

المجاهدة - الدعة

الوصل - القطع

فقد تضمن البيت الشعري، فكرة قد تبدو حقيقية، تصف ذا الحظ من لا يجد معاناة في نيل رزقه عكس بعضهم من يجاهد من أجل عيشة يسيرة، وهذا التضاد يمثل نوعاً من المقابلة، فكان ذا تأثير خاص ومتميز ((ويتجلى هذا التأثير في أن جمعه بين الأضداد ويخلق صوراً ذهنية ونفسية متعاكسة يوزن فيما بينهما عقل القارئ ووجدانه، فينتبين ما هو أحسن منها ويفصله عن ضده))(11).

وكل هذا كان منسجماً مع مفهوم الشكوى والتعبير عن أوجاع النفس الإنسانية وأشجانها، وشعورها بالاضطهاد إزاء ظروف خارجة عن إرادته، وليس هذا فحسب بل حقق التقابل الضدي القيمة العليا للنص، إذ أشار النقاد ومنهم قدامة بن جعفر في معرض حديثه عن بعض الخصائص الاسلوبية التي تعلي من قيمة الشعر، قال: ((والذي يسمى به الشعر فائقاً، ويكون إذا اجتمع فيه مستحسناً صحة المقابلة، وحسن النظم، وجزالة اللفظ، واعتدال الوزن)) (12)، وقد تحقق هذا كله في قصيدة (لا تعذليه) فالتناسق السوري كان مدعاة لاستدعاء الصور الذهنية في قالب أدبي.

المبحث الثاني: التناقض – وحالة الندم

التناقض أسلوب أدبي تشير دلالاته اللغوية على التحالف والتعارض، يقال ((كلامه تناقض بعضه يقتضي إبطال بعض)) (13). وهو فن بلاغي يجمع بين المعنى وضده بالنفي (14). وهو ما يعرف بطباق السلب، كما أنه يشير إلى افتراض علاقة بين مصطلحين يكون التنافي التام والمخالفة الشديدة بين معنيهما، ولا يكون بينهما توسط في العلاقة (15).

وتلزم هذه الآلية النفي بإحدى أدواته (لا، ليس، ما ،). ويطلقنا هذا الفن البلاغي، في أول القصيدة، وهو ما نقرأه في بيتها الأول؛ فقد كشف هذا الاستهلال بأسلوب النهي المتصدر له، حالة الندم ونتائج الأفعال، بعد لوم وعتب سابق أريد منه تثبيت الفعل، بعد أن باءت المحاولات بالفشل، يقول:

لا تعذليه فإن العذل بولغة قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه

مر ابن زريق باضطراب وعدم استقرار من الناحية الاجتماعية، وكان أثرها واضحاً في اختيار الألفاظ والمفردات التي تحاكي تلك الحالة، فهو يطلب من زوجته ألا تلومه في زمن الحاضر (بعد فشل المحاولة) كما لامته في زمن مضي (قبل المحاولة) / (محاولة السفر). يتطلب البيت الأول افتراض لوم سابق من قبل الزوجة – الصوت الرادع والزاجر – مع رفض هذا اللوم، وسبب الرفض لا من باب الاعتراض وإنما هو من نوع الهروب من مواجهة الحقيقة، فهو يرفضه لأنه قد ثبت له مصداق قولها لذلك بدأ الكلام بصيغة (لا الناهية) كيلا يترك مجالاً للنقاش بعد ذلك، فخيبة الأمل وضعته في موقف ضعيف ونفس حزينة، وكان المعين على بعث هذه الاحزان، فالشعر ((كلام عذب ينقل العواطف والاحاسيس من نفس إلى أخرى)) (16).

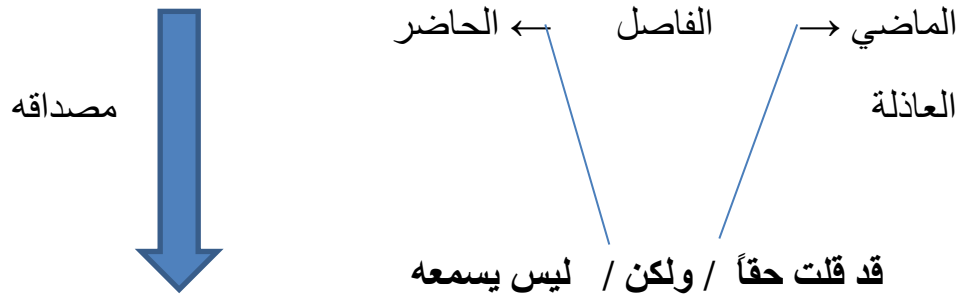
ويمكن تصوير الزمن الماضي والزمن الحاضر في هذا البيت الشعري عبر دلالة الأصوات المتداخلة في النص.

(قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه)

الحاضر ← صوت ابن زريق - المعنف

الماضي ← صوت المرأة اللائمة – (قد تحققت المخاوف)

الحاضر ← صوت ابن زريق المعنف – (الندم لعدم المجارة)



ونقرأ له تناقضاً آخر بأسلوب النفي، في قوله:

ودعته وبودي لو يودعني طيب الحياة وإني لا أودعهُ
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحياً وأدمعي مستهلاتٌ وأدمعهُ
وقوله ايضاً:

بمَنْ إذا أهجَعَ النُّوَامُ بِتُّ لَهُ بِلُوعَةٍ مِنْهُ لَيْلِي لَسْتُ أَهْجَعُهُ
والتناقضات حاضره في قوله:

ودعته – لا أودعه

أهجع – لست أهجعه

لقد تسبب هذا الطرق المُتعمد على ذكر التناقضات الضدية بصيغة التناقض في حدوث صدى موسيقي لترنيمة أدبية مبنية على التعاكس و ((التناقضات الضدية تنشأ من شعورين مختلفين يوقظان الأحساس، وواحد من هذين الشعورين فقط هو الذي يستثمر نظام الإدراك في الوعي والثاني يظل في اللاوعي)) (17). فاللوم إحساس ظل يتعقب ابن زريق، كضوء مستتر خلف حجاب مكبوتاً في اللاوعي، يولد شعوراً بعدم الارتياح حتى وظل يعاقر ويكابد ذلك المدفون في حرباً نفسية طاحنة ترجو النجاح لاثبات قدرة ابن زريق في تملك زمام الأمور.

ونقرأ تناقضاً آخر بأسلوب النفي، يقول:

إني أوسّع عذري في جنائتهِ بالبين عنه وجرمي لا يوسّعهُ
وقوله:

إني لا أقطعُ أيامي وأنففها بحسرةٍ منه في قلبي تُقطعهُ

والتناقض بائن في المتطابقات الآتية:

أوسع – لا يوسعه

لا أقطع – تقطع

يؤكد ابن زريق أن الاعذار التي قدمها لا تبرر رحيله وابتعاده عن محبوبته، بدليل رفضها لكل عذر يقدمه، ويؤكد من خلال هذه المتضادات بوجوب شكر الله بما أنعم عليه، أما إذا نسي الحمد وتبطر على النعمة، فلا محالة أن الله تعالى سيسلبه هذه النعمة. إن هذا التوقف البلاغي في سير النبر الصوتي، لم يك زخرفاً صوتياً مجرداً من الانفعال الذاتي لواقع مرير، وإنما يتلمس المتلقي من هذه الثنائيات الزوجية انسجاماً لحالته النفسية الحزينة التي أحالت عيشته إلى متناقضات، فهذه الآلية ((تجعل من النص كوناً دلاليّاً مثقلاً بالشعور))(18).

لا يجد قارئ هذه النصوص الشعرية توسطاً بين المتضادين، بل إن خيوط التوتر توصل إلى حد التطرف، أما هذا أو ذاك، فالوضع النفسي الذي حلّ بابن زريق، وبعد أن فقد الأمل بالغنى، وفشله في الرحلة، وبعد ما جناه من عطاء بخس لا يليق بمنزلة المعطي ولا بمكانة الأخذ، إذ كان هذا العطاء القليل بمثابة إهانة لكلا الطرفين، فقد أحس ابن زريق بأن هذا العطاء القليل يحط من نفسه وشخصيته شعرياً وذاتياً، والدليل على ذلك ما قاله معزياً نفسه ((إنا لله وإنا إليه راجعون سلكت البراري والبحار والمهامم والقفار إلى هذا الرجل، فأعطاني هذا العطاء النزر))(19). ولم يبادر بإعادة المحاولة، وأن يعاود المدح مجدداً، بل ثقل الأمر عليه، إذ أبت نفسه الإهانة، وإراقة ماء الوجه، في سبيل إعلاء شأنه ذاتياً، فرغم ذلك كله أراد أن يبقى موفور الكرامة، مرتاح الضمير، فكانت هذه القصيدة آخر ما كتب، فقد وجدت بجواره بعد أن التزم داره ومات بهمه. وربما الذي زاد من همه بأن القمر، كناية عن زوجته التي تركها في مكان بعيد عنه - بغداد - كانت أسمى من أي شيء بحث عنه، يقول:

استودع الله في بغداد لي قمراً بالكرخ من فلل الأزوار مطلعاً

رحل عن بغداد في سبيل زوجته، ورحل عن الحياة في الأندلس، والعلة زوجته أيضاً لأنه لم يحصل على مراده ليرجع إليها سالماً غانماً.

المبحث الثالث: الثنائيات الضدية وخصلة التجربة

عادة ما تكون اللغة وسيلة المبدع في التعبير عن لغته الشعرية ومشاعره بطريقة فنية، تولد استجابة قوية في قلب المتلقي، ولكل أسلوبه، فالمبدع يمتلك ((حدساً فنياً ورغبةً يأتلفان فيما بينهما وتكون كلمات ذات صلة بجزيئات يؤكد عليها الشاعر، أو تكون صلته بالبنية التي ينطرق إليها))(20). وقد حققت الثنائيات الضدية بوصفها أسلوباً أدبياً يعلي من قيمة النص وتتلاحم عن طريقها كلماته وأسلوبه في إنتاج الخلاصة الفكرية والوقوف على اعتبارها، فالتضاد نوع من أنواع البديع التي تبين قدرة الشاعر في إظهار مشاعره المشحونة بالنقلات والحركات المتعكسة، والتناقض قسيمه يمتلك تلك الصفة، فكلاهما وسيلة يلجأ إليها الشاعر لتأكيد معنى ((يجمع بين أطرافه المتناقضة))(21).

يسوق ابن زريق البغدادي جملة من الحكم التي تعبر عن تجربته، بوصف الحكمة وسيلة لغوية تفترض التأثير والاستفادة؛ لأنها خلاصة تجربة ((تمنع صاحبها من الوقوع فيما يذم فيه، أو قد يندم عليه، وتمنعه من اختيار المفصول دون الفاصل أو المهم قبل الأهم))(22).

إن نفس الشاعر الباحثة عن العيش الهانئ والاستقلال الاقتصادي هي ((الحافز على إفراز قصيدة تقوم بمهمة بناء المتهدم والربط بين المتفرق))(23).

رحل الشاعر بجسده مخلقاً روحه مع أحبته، رحل وكان متخاصماً مع زمن لا يقدر موهبته، ورجال لم ينصفوه. وفي خضم هذه التجربة يسوق ابن زريق جملة من التجارب نستشف منها ريح الحكمة. فالحكمة هي خلاصة التجارب، وأول ما تم استحصاله في نفسه بعد كل ما عاناه (القناعة) فالعيشة الراضية تكمن بالقناعة، فهي وسيلة لحياة أفضل، يقول:

قد وزع الله بين الخلق رزقهم لم يخلق من خلق يضيعه

لكنهم كلّفوا حرصاً فلسّت ترى مسترزقاً وسوى الغايات تُفنعهُ

فقد قيل (خير الفتى القنوع)، و (القناعة كنز لا يفنى). لقد اعانت التجربة الذاتية للشاعر في بث خلاصته، ولو آمن هو بما قاله لما كان ما هو عليه، وما فقد زوجته وحياته، ولكن إيمانه بالقناعة بما قسم الله تعالى جاء متأخراً، فالحكمة هي التجربة المكتسبة من فعل أو رأي ومن طبيعة الحكمة إنها تنتشر بين الآخرين للانتفاع بها (24).

لقد استعان ابن زريق البغدادي بالثنائيات الضدية في طرق مستمر لها، لقدرتها على إيصال أفكاره بخصيصتها القائمة على الضدية، فقد تشابك فكره مع لغته في طرح نتاجه الجديد، فللغة ((دور إيجابي في توجيه الفكر والتأثير فيه كما أن للفكر فعاليته المتميزة في توجيه اللغة وإعادة تشكيله لعلاقاتها في أثناء تشكيله لنفسه ((25)(26).

ولأن ابن زريق كان بطراً بما اتاه الله من نعمة الصحة ودفع اذى الاخرين عنه؛ كان الواجب أن يشكر الله على ما آتاه، فالشكر يزيد النعمة والكفر يزيله، وهذا ما دلّ عليه قوله:

رُزِقْتُ مُلْكاً فَلَمْ أَحْسِنِ سِيَّاسَتَهُ وَكُلُّ مَنْ لَا يُسْوسُ الْمُلْكَ يَخْلَعُهُ

وَمَنْ عَدَا لِابْسَاسِ ثَوْبِ النِّعَمِ بِلَا شَكَرٍ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْزَعُهُ

ومن النتائج التي توصل إليها، تقلب الأحوال وعدم دوامها، وهي فكرة آمن بها كل من تعرض إلى سلبيات في حياته، لتكون تلك السلبيات تحولات جذرية يطرحها بعضهم من كانت لديه موهبة الفن بأفكار حكيمة، يقول ابن زريق بعد أن دارت به الدوائر، مسترجعاً ما كان جميلاً من ذكرياتهم، فيقول:

عِلْمًا بَأَنَّ إِصْطِبَارِي مُعَقَّبٌ فُرَجًا فَأَضِيقُ الْأَمْرَ إِنْ فَكَّرْتُ أَوْسَعُهُ

عَسَى اللَّيَالِي الَّتِي أَضُنْتُ بِفِرْقَتِنَا جِسْمِي سَتَجْمَعُنِي يَوْمًا وَتَجْمَعُهُ

يؤكد الشاعر بعد ان بانته له النتائج بضرورة التحلي بالصبر؛ لانه طريق اليسر ومفتاح الفرج، فالمبدع لا يقوم بنسج الواقع بل يقوم بخلقه، استجابة لمتطلبات الظرف ومهام الوعي ((فالشعر يذيب الواقع ويصبه في قالب مثالي ... ووسائل التحويل المتاحة للشاعر هي ما يملك في رؤية تجاوزية، وقدرة على التركيب والربط بين الأشياء المتقابلة او المتناثرة، فضلاً عما يملك من ثراء لغوي وملكية خيالية (((27). وهذا ما تمكن منه شاعرنا مما ادخل القصيدة والتاريخ من اوسع ابوابه.

ان استعمال ابن زريق البغدادي لمثل هذه الثنائيات (أضيق الامر – أوسعها) و (فرقتنا – تجمعنا) باعثاً لاهتماماته التي كان يأملها فقد فر من (ضيق العيش أملاً في سعة الرزق). ثم يأخذ الرجاء والتمني، الرجاء بلقاء الحبيب ولكن الظروف تجعل ذلك الرجاء من باب المحال. ولذلك تضاربت الانفعالات بين الرجاء والتمني مصوراً إياها في شعره تصوير البارع المقتدر في رسمه.

ويقول أيضاً:

وَمَا مُجَاهِدَةُ الْإِنْسَانِ تَوْصِيلُهُ رِزْقًا وَلَا دَعَا الْإِنْسَانَ تَقْطَعُهُ

لقد ادت القصيدة دور المنفس عن الهموم وعبء الكاهل، فقد كانت المفردات اللغوية شاطئ الأمان والاطمئنان ووسيلة للتطهير وتنقية النفس من الهموم، فقد عبرت عن رحلة تصالح مع الذات في قناعة تامة.

فكانت خلاصة التجربة لديه تتمثل بالتقسيم الآتي:

1. قسم دنيوية غير عادلة.
2. قسم دنيوية عادلة.

قسم دنيوية غير عادلة نقرؤها في قوله السابق ((ومجاهدة الانسان)) .

وقوله:

لأصبرنَ لدهرٍ لا يمتُّعني به ولا بي في حالٍ يُمتُّعُه

أما القسم الدنيوية العادلة، فتمثل في ابياته التي تتضمن القناعة والرضا بما قسمه الله من رزق، ومنها:

وَمَنْ عَدَا لَابْسًا ثَوْبَ النَّعِيمِ بِلَا شُكْرِ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْزِعُهُ

وقوله:

عسى الليلي التي أضنتُ بقرقتنا جسمي ستجمعني يوماً وتجمعه

وقوله:

ألا أقمّتُ فكان الرشدُ أجمعه لو أنني يومَ بانَ الرشدُ أثبعه

وتبعاً لذلك لا يستغرب ان يزخر نص ابن زريق بالمتناقضات الشعرية؛ لأن الشعر ((لا يمثل إلا الحالة النفسية في الوقت الذي أنشأ فيه الشاعر شعره، وقد يكون متفانلاً حيناً، ومتشائماً حيناً آخراً، وراضياً حيناً، وغير راض حيناً آخر، والشعر يمثل هذه الاطوار يسجل وقع الحياة على نفس الشاعر في كل حين)) (28).

وهكذا حققت الثنائيات بما تشمل من تضاد وتناقض التجربة الذاتية للشاعر في ثورتها ضد الواقع، فجسد هذه الثورة في قالب شعري جميل فكانت قصيدة (لا تعذليه).

الخاتمة

ابن زريق البغدادي شاعر قتله طموحه حين ارتحل من موطنه الأصلي (بغداد) قاصداً الأندلس، لعله يجد سعة من الرزق ما يعوضه عن فقره، وقد لعبت الثنائيات الضدية من (تضاد وتناقض) دوراً في التعبير عن الصراع الكامن في نفس ابن زريق. ولم يك هذا الطباق تزويقاً اعتباطياً ومجرداً من الدلالة، وانما كان الدافع هو المحفز لاختيار الألفاظ. وهذا يعتمد على قدرة الشاعر وإبداعه وسعة خياله حتى تكون أدواته طبيعة فتنسب في نصه. وقد استعان ابن زريق في أغلب فراقيته بأسلوب التضاد من جهة أو (طباق الإيجاب) أو أسلوب التناقض أو (طباق السلب) من جهة أخرى؛ ليكشف من خلاله الجوانب الخفية من تجربته الإنسانية، وقد أجاد في هذا الاختيار من أجل إحداث إيقاع داخلي جميل تستلذ به النفس وتردده الألسن، معتمداً أسلوب التواتر المتأنى من انتقال الضد إلى الضد مما يزيده جمالاً وحسناً في التعبير وبراعة في تأدية المعنى.

الهوامش

(*) وردت هذه القصيدة كاملة في الوافي بالوفيات: صلاح الدين الصفدي، تحقيق: أحمد الارنؤوط، تركي مصطفى: 76/21. وثمرات الاوراق: ابن حجة الحموي، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم: 312-313. ونفح الازهار في منتخبات الاشعار، شاکر شقير البتلوني: تصحيح: ابراهيم اليازجي: 5-7. وورد بعض منها في كتاب مصارع العشاق، ابو محمد السراج القاري: م/1 /23. وسترد القصيدة كاملة في نهاية البحث.

- (1) مصارع العشاق: م/1 /23، وينظر: تاريخ الادب العربي، بروكلمان: م/1 /66.
- (2) ينظر: التناص في الشعر الجاهلي (اطروحة دكتوراه)، علي حسين سلطان: 41.
- (3) احياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي: 3 /308
- (4) لسان العرب، ابن منظور: مادة (ضدّ) .
- (5) المعجم الفلسفي، جميل صليبا: 4
- (6) مصطلح القافية من الاخفش الاوسط الى حازم القرطاجي، د. محمد ازهري: 103.
- (7) ينظر: بنية القصيدة في شعر عز الدين المناصرة، د. فيصل صالح القصيري: 146.
- (8) الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق، علي محمد ومحمد أبو الفضل ابراهيم: 135، وينظر: تحرير التخيير في صناعة الشعر والنثر، ابن ابي الاصبع المصري، د. وصفي محمد شرف: 111.
- (9) معجم علم النفس والتحليل النفسي، د. فرج عبد القادر وآخرون: 243.
- (10) اصول علم النفس، احمد عزت: 468.
- (11) البلاغة والتطبيق، د. احمد مطلوب: 424-425.
- (12) نقد الشعر: قدامه بن جعفر، تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي: 162.
- (13) لسان العرب: مادة (نقض) .
- (14) فنون بلاغية، د. احمد مطلوب: 272 ، وينظر: البيان والبدیع، د. احمد مطلوب: 246.
- (15) مصطلح القافية من الاخفش الى حازم القرطاجي: 103.
- (16) اللغة العليا / النظرية الشعرية، جان كوهين: 30
- (17) المصدر نفسه.
- (18) الغاب/ دراسة اسلوبية: سمير الشيخ: 73.
- (19) مصارع العشاق: م/1 /23 ، وينظر: تاريخ الادب العربي: م/1 /ج/2 /66.
- (20) جماليات الاسلوب، د. فايز الداية: 22.
- (21) المرشد الى فهم اشعار العرب وصناعتها، د. عبد الله الطيب: 248.
- (22) الحكمة (بحث من الشبكة المعلوماتية)، ناصر بن سليمان العمر: 12.
- (23) الشعر بين الواقع والابداع، صبيح ناجي القصاب: 13.
- (24) الحكمة ومصادرها في العصر العباسي (بحث من الشبكة المعلوماتية)، بقلم: عواطف ابو غبيش.
- (25) اللغة الشعرية في الخطاب النقدي، محمد مبارك: 16.
- (26) هذا النص يذكرنا بنصوص شعرية عديدة، منها قول الشاعر يحيى الغزال:
مَنْ ظَنَّ أَنَّ الدَّهْرَ لَيْسَ يُصِيبُهُ بِالْحَادِثَاتِ فَإِنَّهُ مَغْرُورٌ
فَالِقَ الزَّمَانَ مُسَهَوًّا لَخَطُوبِهِ وَأَنْجَرَ حَيْثُ يَحْرُكُ الْمَغْدُورُ
وَإِذَا تَقَلَّبَتِ الْأُمُورُ وَلَمْ تَدْمُ فَسَوَاءٌ الْمَحْزُونُ وَالْمَسْرُورُ
ديوان يحيى بن حكم الغزال، تحقيق، د. محمد رضوان الداية، 77.
- (27) الثنائيات الضدية في شعر ابي العلاء المعري (دراسة اسلوبية)، د. علي عبد الامام المهدي: 291.
- (28) اسس النقد الادبي عند العرب، د. احمد بدوي: 419.

المصادر والمراجع

- (1) احياء علوم الدين : ابو حامد محمد الغزالي (ت 555 هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ط، 1998.
- (2) اسس النقد الادبي عند العرب : د. أحمد بدوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، د.ط، د.ت.
- (3) أصول علم النفس : احمد عزت راجح، دار العلم، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
- (4) البلاغة والتطبيق: د. أحمد مطلوب، د.كامل حسن البصري، مطابع بيروت الحديثة، بيروت، لبنان، د.ط، 1981.
- (5) بنية القصيدة في شعر عز الدين المناصرة : د. فيصل صالح القصيري، دار مجد للنشر والتوزيع، عمان، الاردن، ط1، 2006.
- (6) البيان والبيدع : د.أحمد مطلوب، دار البحوث العلمية، الكويت، ط1، 1975.
- (7) تاريخ الادب العربي : كارل بروكلمان، نقله الى العربية: أ. د عبد الحلیم النجار، دار الكتاب الاسلامي، ط1، 2005.
- (8) تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القرآن : ابن ابي الاصبع المصري (654 هـ)، تقدير وتحقيق: د. حنفي محمد شرف، لجنة احياء التراث الاسلامي، القاهرة، د.ت، 1963.
- (9) ثمرات الاوراق : تقي الدين ابو بكر بن حجة الحمودي، تحقيق وتعليق: محمد ابو الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، 2005.
- (10) الثنائيات الضدية في شعر ابي العلاء المعري (دراسة اسلوبية) : د. علي عبد الامام المسدي، دار تموز للطباعة، دمشق، ط1، 2013.
- (11) ديوان يحيى بن حكم الغزال : حققه وشرحه وقدم له: د. محمد رضوان الداية، دار قتيبة، الامارات، ط1، 1982.
- (12) جماليات الاسلوب : د. فايز الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط2، 1441هـ.
- (13) الغاب (دراسة اسلوبية) : سمير الشيخ، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2012.
- (14) فنون بلاغية : د. احمد مطلوب، دار البحوث العلمية، الكويت، 1975.
- (15) كتاب الصناعتين في الكتابة والشعر : أبو هلال العسكري (395 هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد ابو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية، مصر، ط1، 1952.
- (16) لسان العرب : ابن منظور (711 هـ)، تقديم: الشيخ عبد الله العلياني، اعداد وتصنيف: يوسف خياط، مطابع تكنولوجيا الحديثة، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت.
- (17) اللغة الشعرية في الخطاب النقدي : محمد رضا مبارك، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، د.ط، 1993.
- (18) اللغة العليا (النظرية الشعرية) : جان كوهين، ترجمة وتعليق: احمد درويش، المجلس الاعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، د.ط، 1995.
- (19) المرشد الى فهم اشعار العرب وصناعتها : د. عبد الله الطيب المجذوب، مطبعة البابي الحلبي واولاده، مصر، د.ط، 1955.
- (20) مصارع العشاق : ابو محمد جعفر بن احمد السراج القاري، دار صلاذر، بيروت، د.ط، د.ت.
- (21) مصطلح القافية من الاخفش الاوسط الى حازم القرطاجي : د. محمد ازهرى، عالم الكتب الحديث، ط1، 2010.
- (22) معجم علم النفس والتحليل النفسي : د. فرج عبد القادر طه، د. شاكرا عطية قنديل، د. محمود السيد ابو النيل، د. حسين عبد القادر محمد، العميد مصطفى كامل، اشرف عليه وراجعته: د. فرج عبد القادر طه، دار النهضة العربية، ط1، د.ت.
- (23) المعجم الفلسفي : جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ط، 1985.
- (24) نفع الازهار في منتخب اشعار : شاكرا بن محفوظ بن صالح شقير البتلوني، تصحيح: ابراهيم اليازجي، بيروت، ط3، 1986.

- (25) نقد الشعر : ابو الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق: د. محمد عبد المنعم الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
- (26) الوافي بالوفيات : صلاح الدين خليل بن ابيب الصفدي (764 هـ)، طالعه: يحيى بن محي الشافعي بن ابيك الصفدي، احمد بن مسعود، تحقيق: احمد الارنؤوط، تركي مصطفى، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2000.

الاطاريح

- (27) التناقض في الشعر الجاهلي (اطروحة دكتوراه) : علي حسين سلطان، كلية الاداب، جامعة بغداد، 2006.

بحوث الشبكة المعلوماتية (الانترنت)

- (28) الحكمة : بقلم ناصر بن سليمان العمر، في 8.31 e.m 2014/5/23
- (29) الحكمة ومصادرها في العصر العباسي : بقلم: عواطف البوغيش، جامعة آزاد الاسلامية، ايران، الثلاثاء، 15 أيار 2012.

الملحق

قصيدة لا تعذليه

لابن زريق البغدادي (420 هـ)

- البسيط -

لا تعذليهِ فإنَّ العَدْلَ يُوعَى
 جاوزتَ في لومه حدًّا أضربيه
 فاستعملي الرفق في تائبه بدلًا
 قد كان مُضطلعًا بالخطبِ يحمله
 يكفيه من لوعة التشتيت أن له
 ما أب من سفر إنا وأزعجه
 كأنما هو في حلٍّ ومترحل
 إذا الزمان أراه في الرحيل غنيَّ
 تأبى المطامع إلا أن تُجشمه
 وما مجاهدة الإنسان توصله
 قد وزع الله بين الخلق رزقهم
 لكنهم كلّفوا حرصًا فلست ترى
 والحرص في الرزق والأرزاق قد قُسمت
 والدهر يُعطي الفتى من حيث يمتعه
 أستودع الله في بغداد لي قمرًا
 ودّعته وبودّي لو يودّعني
 وكم تشقّع بي أن لا أفارقه
 وكم تشبّث بي يوم الرحيل ضحى
 لا أكذبُ الله ثوبُ الصبر منخرق
 إني أوسّع غدري في جنائتيه
 رزقتُ ملكًا قلم أحسن سياسته
 ومن غدا لابسًا ثوب النعيم بلا

قد قلتَ حقًا ولكن ليس يسمعه
 من حيث قدرت أن النصح ينفعه
 من عذله فهو مضمن القلب موجهه
 فضيّقت بخطوب الدهر أضلعه
 من النوى كل يوم ما يروعه
 رأي إلى سفر بالعزم يزمعه
 مؤكّل بقضاء الله يدرعه
 ولو إلى السند أضحي وهو يزمعه
 للرزق كدًا وكم ممن يودعه
 رزقًا ولادعة الإنسان تقطعه
 لم يخلق الله من خلق يضيّعه
 مسترزقًا وسوى الغابات تقنعه
 بغي إلا إن بغي المرء يصرعه
 إرتًا ويمنعه من حيث يطمعه
 بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه
 صفوا الحياة وأني لا أودعه
 وللضروقات حال لا تشفعه
 وأدمعي مستهلّات وأدمعه
 عني بفرقتي لكن أرقعه
 بالبين عنه وجرمي لا يوسعه
 وكل من لا يسوس الملك يخلعه
 شكر عليه فإن الله ينزعه

اعترضت من وجه خلي بعد فرقتي
 كم قابل لي ذقت البين قلت له
 ألا أقتم فكان الرشد أجمعه
 إني لأقطع أيامي وأنفها
 بمن إذا هجع النوام بت له
 لا يطمئن لجنبي مضجع وكذا
 ما كنت أحسب أن الدهر يفجعي
 حتى جرى البين فيما بيننا بيد
 قد كنت من ريب دهري جازعاً فرقاً
 بالله يا منزل العيش الذي درست
 هل الزمان معيد فيك لذننا
 في ذمة الله من أصبحت منزله
 من عنده لي عهد لا يضيعه
 ومن يصدع قلبي ذكره وإذا
 لأصبرن لدهر لا يمتغي
 علماً بأن إصطباري معقب فرجاً
 عسى الليلي التي أضنت بفرقتنا
 وإن تغل أحداً منا منيته
 وإن يدم أبدأ هذا الفراق لنا
 كأساً أجرع منها ما أجرعه
 الذنب والله ذنبي أست أدفعه
 لو أنني يوم بان الرشد اتبعه
 بحسرة منه في قلبي تقطعه
 بلوعة منه ليلى أست أهجعه
 لا يطمئن له مذ بنت مضجعه
 به ولا أن بي الأيام تفجعه
 عسراء تمنغي حظي وتمنعه
 فلم أوق الذي قد كنت أزرعه
 آثاره وعفت مذ بنت أربعه
 أم الليلي التي أمضته ثرجعه
 وجاد عيث على معنك يمرعه
 كما له عهد صدق لا أضيعه
 جرى على قلبه ذكري يصدعه
 به ولا بي في حال يمتعه
 فأضيق الأمر إن فكرت أوسعه
 جسمي ستجمعي يوماً وتجمعه
 لا بد في عده الثاني سيبته
 فما الذي بقضاء الله يصنعه